المبحث التاسع

الشفرة المنطوقة والشفرة المكتوبة: نمط الإنتاج

obeikandl.com

obeikandl.com

الشفرة المنطوقة والشفرة المكتوبة: نمط الإنتاج

تستقل كل من هاتين الشفرتين إلى حد بعيد بمواضعات ومتطلبات وظروف تمايز بين إحداهما والأخرى من حيث نمط الإنتاج Manner of Production. ويؤدي الاختلاف بينهما في نمط الإنتاج إلى اختلافات بنائية نراها في المبحث القادم. ولدينا عدة وجوه للمقارنة بين الشفرتين من حيث نمط الإنتاج، نكشف عنها فيما يلي:

١- لعل أول وجوه المقارنة تتجلى في أن اللغة المنطوقة تستخدم عادة مصحوبة بتلويحات اليدين Gestik وتعبيرات الوجه Mimik. فهذا التفاعل بين حركات الجسم وإشاراته وبين التعبير، مما لا يجوز إغفاله؛ لأنه يؤثر في عملية التفاهم تأثيرًا واضحًا. ولا ينبغي – كما يقول رونالد إيلوار – أن نستخدم مقولة (التعبير الجسدي) جزافًا ودونما تحفظ؛ إذ لا يكون الجسم معبرًا بحركاته وسكناته إلا على قدر ما يتسنى للكلام أن يفصح بذاته عن معاني هذه الحركات والسكنات[1]، أو بعبارة أخرى: لا يكون الجسم معبّرًا بحركاته وسكناته إلا على قدر ما يكون لهذه الحركات والسكنات من دور في توجيه المعنى واكتماله.

وقد عنيت السيميائية (Semiotics أو Semiology) بهذه المسألة؛ فأفاضت في شرحها تحت قضية (مساعدات الكلام): فإذا كان الاتصال اللغوي يعتمد على العلامات المنطوقة، فإن الخطاب تصاحبه غالبًا بعض العلامات الموازية مثل: التنغيمات والحركات الإيمائية، والأوضاع الجسمية ونحوها.

الأمر يتعلق إذن بمؤشرات طبيعية وعفوية ذات وظيفة تعبيرية خالصة. ولكن يمكن لبعض من هذه المؤشرات أن تكون لها معانيها الاصطلاحية المجتمعية في نهايات الاتصال: هز الكتفين، ورفع الحاجب وحركة الرأس الأفقية أو العمودية، وتلك علامات تختلف بالاختلاف

(1) رونالد إيلوار: مدخل إلى اللسانيات، ترجمة دكتور/ بدر الدين القاسم، منشورات وزارة التعليم العالي، الجمهورية العربية السورية (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) ص٣٤

بين الثقافات والمجتمعات، فاليونانيون يحركون الرأس من أسفل إلى أعلى علامة على النفي[1].

ومن ناحية أخرى، جعلت لبحث السلوك الحركي Kinesics فرعًا خاصًا من فروعها هو (التشخيصية)، وهو فرع لا يعني بدراسة الإيماءات والحركات الجسدية فحسب، وإنما يعني كذلك بأثر التبدلات الصوتية أو ما يعرف بالمؤثرات الصوتية النوعية voice quality effects، مثل: أنظمة الوقف، والتنغيم، ونمط النبر، ونغمة الصوت، وشدة الصوت أو طبقته، والإيقاع، ودرجة سرعة الصوت، ونحو ذلك مما يؤثر تأثيرًا قويًا في تحديد المعاني الوظيفية والمعجمية معًا. ويستطيع الأداء التمثيلي المعبّر في مشهد مسرحي مثلاً أن يزودنا بأمثلة حية على ذلك.

وتتضافر المؤثرات الصوتية مع الإيماءات والحركات أثناء الكلام. ويضرب براون / بول مثالاً على ذلك بالعبارة التالية: I'd really like to، فإذا نطقها المتكلم مائلاً إلى الأمام، مبتسمًا، في صوت حاد أو شاهق (من الشهيق)، أفادت معنى مغايرًا لما يقصده متكلم آخر ينأى بجانبه، مقطب الجبين، في صوت هازئ من الأنف[2].

هذه المسألة – في الحدود التي نرتضيها هنا – أظهر من أن نخوض في التمثيل عليها. ويكفينا مثالاً على ذلك من العربية عبارة نحو: وهذه صفارة الحكم (في نهاية مباراة بين فريقنا وفريق أجنبي). فقد تدل العبارة لمن سمعها ولم يشهد المباراة أو يعرف النتيجة، على فرحة انتصار فريقنا، إذا صدرت عن المتكلم مائلاً إلى الأمام، ملوحًا بيده، مبتسمًا، وفي نوعية صوتية حادة أو صارخة. بينما تفيد العبارة ذاتها معنى الهزيمة إذا بدا المتكلم مقطب الجبين، وإذا نطقت في طبقة صوتية ضعيفة وإيقاع بطئ محبط. لا يصحّ إذن أن نهمل أثر السمات الخارجة عن اللغة أو المكونات غير اللغوية في إنتاج الشفرة المنطوقة.

---

(1) بيار غيرو: السيمياء، مرجع سابق، ص٦٦-٦٧

(2) Brown / Yule, op. cit., p. 4

وإذا كانت حركات اليدين وتعبيرات الوجه والتبدلات الصوتية مرتبطة بالموقف situation، فإن ذلك يبين - من ناحة أخرى- أن الشفرة المكتوبة لا تملك إلا أن تعيد الموقف لغويًا وعلى نحو غير مباشر. وعند نقل اللغة المكتوبة إلى صورة صوتية تبدو الاستعانة بحركات اليدين وتعبيرات الوجه أدوات للتفسير، وليست نابعة من الحدث الكتابي نفسه أو تابعة له[1].

٢- لا يتحكم المتكلم وحده في إنتاج الأنظمة التبليغية communicative systems التي تختلف بدورها عن الأنظمة التي يتحكم فيها الكاتب؛ فالمتكلم يتدرج بمنتجه اللغوي في ظروف تقتضي متطلبات كثيرة. وينبغي للمتكلم أن ينتبه تمامًا إلى ما يقوله وأن يجعله مناسبًا ومطابقًا لمقاصده. إنه ينطق بعبارته الجارية على لسانه في الوقت نفسه الذي يخطط فيه لما يأتي من منطوقات. إنه لا يبقى محتفظًا بما قاله من قبل. وفي بعض الأحيان الاستثنائية يكون هنالك ما يذكره بما يريد قوله بعد ذلك.

على العكس مما سبق، يستطيع الكاتب أن ينظر فيما كتب، كما يمكنه أن يتوقف بين كلمة وأخرى دون أن يخشى مقاطعة محدثه، وينال حقه في اختيار مفرداته، وربما استعان بالمعجم إن اقتضى الأمر، وله أن يفحص ما وصل إليه في ضوء ملحوظاته، وله أيضًا أن يعيد تنظيم ما كتب، بل ربما بدل رأيه فيما يود قوله.

وبينما قد يُحجْم المتكلم عن الكلام تحت وطأة ظروف بعينها، فإن الكاتب لا يخضع لضغط مثل هذه الظروف. كذلك، فإن المتكلم يدرك أن الكلمات التي تنطلق من شفتيه سوف يسمعها محدثه، ولذلك يصلح من كلامه إصلاحًا نشطًا شاملاً. أما الكاتب، فإن لديه الفرصة لأن يشطب ما كتب ويعيد كتابته[2]. وغني عن البيان أن ما نجريه على

(1) Soell, .p. cit., S. 21
(2) Brown / Yule, op. cit., p. 5

اللغة المنطوقة من إصلاحات أو تصويبات يبقى مسموعًا؛ فاللغة المنطوقة لا تمحى ولا تكشط. ووقوع الخطأ عند الانطلاق بالحديث أمر وارد في اللغة المنطوقة، وإن كان من الأحرى ألا نعده خطأ بالمعنى المألوف للخطأ؛ فإن ذلك يعد – في الواقع – سمة مميزة للغة المنطوقة[1].

٣- إن الوقت الذي يستغرقه إنتاج اللغة المكتوبة (عند كل من المرسل والمتلقي) أطول مما يستغرقه إنتاج اللغة المنطوقة. ويرتبط هذا العامل ارتباطًا غير مباشر بإمكانية التصويب التي تحدثنا عنها منذ قليل.

إن تباين اللغتين في مدة الإنتاج، يرتبط بما تعرفه اللغة المنطوقة من ضآلة التعقيد، وضآلة التنويع كذلك؛ فأشكال الأنساق اللغوية في اللغة المنطوقة أقل بوجه عام مما تنتجه اللغة المكتوبة. ويعني ذلك أن الخطاب الشفهي يستخدم قدرًا ضئيلاً من الإمكانيات الاستبدالية (أو الرأسية) في اللغة paradigmatische Moeglichkeiten[2]. وهي الإمكانيات التي ترتبط بأنساق المفردات وصيغها وتصاريفها وإيثار بعضها على بعض.

لقد بحثنا من قبل عامل الإعداد، ورأينا أنه في الشفرة المكتوبة أقوى منه في الأقوال الشفهية المنطوقة. ولهذا العامل تأثيره المباشر في درجة التعقيد والتنظيم بين الشفرتين. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشفرة المنطوقة تعرف إمكانيات خاصة تستعيض بها عن التعقيد؛ كالتبدلات والمؤثرات الصوتية، وإشارة اليدين، وتعبيرات الوجه. وهي إمكانيات تقوي أثر الشفرة المنطوقة في العملية التبليغية من ناحية، وتهبط بدرجة التعقيد النحوي والدلالي فيها من ناحية أخرى. أما تقويتها أثر الشفرة المنطوقة فى العملية التبليغية، فيمكن أن نجد لذلك مثلاً فى نحو قولنا: اخرج! (من حيث هو فعل كلامى إنجازى أمرى توجيهى) وقد صاحبته إشارة مناسبة باليد تعزيزا لقوة الأمر بالخروج (وفى ذلك بالطبع جمع بين

(1) Soell, po. cit., S. 21
(2) Soell, lp. Cit., S. 22

قناتى الاتصال السمعية والبصرية). وأما هبوطها بدرجة التعقيد النحوى والدلالى، فهو ما نجده مثلاً فى مصاحبة تعبيرات الوجه والعينين عن الغضب فى نحو قولنا: "هذا ما أراه" فى مقابل: "أنا غاضب مما قيل، وهذا ما أراه!" ونحوه.

٤- ترتبط مسألة اختلاف الشفرتين في المدة الزمنية التي تستغرقها إحداهما في الإنتاج بمسألة أخرى، هي ميل الشفرة المنطوقة إلى تبسيط نسبي في الإنتاج. ويرتبط هذا التبسيط بسمات لغوية عدة، من أهمها: البتر، والاقتصاد، والحذف، واستثمار ما يسميه هـ. تسيمرمان H. Zimmermann بـ (الفكر الضمني unausgesprochenes Denken)؛ أي الفكر الذي لا يتلفظ به[1]. ويعرف إنتاج الشفرة المكتوبة هذه السمات أحيانًا، ولكنها في الشفرة المنطوقة أقوى أثرًا وأكثر شيوعًا؛ فهي من طبائعها الأولية. وينبغي في حديثنا عن التبسيط أن نميز بين التبسيط الاستبدالي (الرأسي) والتبسيط التركيبي (الأفقي)؛ ففي العربية نرى من وجوه التبسيط الاستبدالي في الشفرة المنطوقة، استبدال المفردات ذات الأوزان المزيدة بنظائرها المجردة، وإيثار المفردات السهلة الشائعة الجارية على الألسنة. ومن وجوه التبسيط التركيبي: الجمل البسيطة المتوالية التي تسود الحديث الشفهي، وتضاؤل الجمل التي تسمح للملكتين اللسانية والتواصلية بالظهور الحر، وكثرة تضمين بعض الحروف معنى بعض، حتى وإن كان نظام اللغة المعيارية لا يجيز مثل هذا التضمين. وربما وجدنا من وجوه التبسيط التركيبي كذلك التقديم والتأخير الذي يعكس تأثرًا بعادات لغوية خاصة باللغة الدارجة، مثل، جنيت ماذا من غضبك؟ أو ما يمكن أن نسميه بالاستفهام المقلوب مثل: جنيت من غضبك ماذا؟. إن مثل هذه الأساليب مما يبدو مصوغًا على مثال قولنا في اللغة الدارجة: جنيت إيه من غضبك؟ أو على مثال: جنيت

(1) Zimmermann, Heinz, Zu einer Typologie des spontanen Gespraechs, syntaktische Studien zur basel – deutschen Umgangssprache, Bern (1965) SS. 53-59

من غضبك إيه؟، وهي صيغ معروفة وشائعة فيها. وقد سبق أن لاحظ هانز إجرز Hans Eggers أن انتشار بعض التراكيب والجمل ذات السمات الخاصة في لغة الكتابة المعاصرة بتأثير اللغة الدارجة (اللغة المنطوقة) شئ معروف، على نحو ما نجد في الجمل المبتورة والناقصة[1].

ويؤكد التبسيط في إنتاج الشفرة المنطوقة وما له من وسائل تؤدي إليه كالاختصار، والاختزال، والحذف ونحوها، يؤكد دور الموقف التبليغي والاجتماعي في العملية التبليغية؛ ففي اللغة المنطوقة يساعد الموقف على فهم المحذوف أو المختزل. وكما يقول جان كوهين Jean Cohen، فإن المتكلم حرصًا على الاقتصاد يلغي المعلومات التي يعلم أن محدثه يستطيع أن يستخلصها من الموقف. والقصيدة – مثالاً على اللغة المكتوبة – تفعل الشئ نفسه، مع فارق واحد هو أن الموقف لا وجود له. ومن هنا فإن كل الكلمات التي صنعت لكي تحدد، تصبح عاجزة عن أن تملأ وظائفها؛ فهي تعين دون أن تعني، وتصبح بذلك كلمات إشارية[2]. إن الكلمات بالنسبة للغة المنطوقة تؤدي وظائفها داخل الموقف باعتبارها "فهارس" على حد تعبير بيرس، وهي تصاحب الإيحاءات والإشارات التي تزود بالمراجع، وفي داخل اللغة المكتوبة تقود الكلمات إلى شئ تم حدوثه من قبل الرسالة ذاتها، ولكنها في داخل القصيدة تفقد هذا وذاك.

ويمكن أن يقال الشئ نفسه عن الأزمنة الفعلية، فكلها تعتمد على القياس إلى الحاضر كوسيلة توضيحية (هكذا في الأصل والصواب

---

(1) Eggers, Hans, Deutsche Gegenwartssprache in Wandel der Gesellschaft, in: Sprache, Gegenwart und Geschichte (Sprache der Gegenwart Bd. V hrsg. Von H. Moser) Duesseldorf (1969) SS. 9-29, S. 10

(2) أي كلمات تستخدم استخدامًا نمطيًا لتشير إلى المفاهيم المرتبطة بالعلامة اللغوية وتحدد كفاءتها الدلالية في النظام اللغوي. وتختلف وظيفة العلامة في هذه الحال عن وظيفتها فيما يعرف بـ (الاستخدام الراهن أو الفعلي actual usage) المرتبط بسياق الحدث اللغوي (أو الفعل الكلامى) في وقت بعينه وموقف بذاته.

حذف الكاف والنصب على الحال)، وفي اللغة المنطوقة يكون الحاضر مؤرخًا من خلال الموقف، وفي اللغة المكتوبة من خلال السياق[1].

ومهما يكن من أمر، فإنني أحسب أننا قد وصلنا هنا إلى مسألة مهمة جدًا، وهي التفريق بين السياق والموقف من ناحية، وارتباط اللغة المكتوبة بالسياق واللغة المنطوقة بالموقف من ناحية أخرى. وقد دعا اللغويين إلى الخوض في التمييز بين هذين الاصطلاحين وبيان وظائفهما في الكلام ما لاحظوه وصار ثابتًا في أكثر مراجع علم اللغة (لاسيما في اللغويات التداولية) من أن ما يفهم من الحدث اللغوي أكثر من المقول بالفعل. ولعل من خير التمييزات التي نراها في بحث هذين الاصطلاحيين ما نجده عند أوجينيو كوزيريو Eugenio Coseriu؛ فالسياق Kontext يعني المحيط اللغوي الخالص للعلامة في النص؛ أي المقول من قبل وما يقال بعد ذلك. أما الموقف Situation فيعني المحيط غير اللغوي للعلامة أو السلسلة من العلامات، بما فيه من ظروف وملابسات تصاحب الحدث اللغوي، فضلاً عن معلومات يتجاوزها المتكلم والمستمع إذا كانت معلومة بينهما.

ويضيف بعض المنظرين اللغويين إلى العاملين السابقين عاملاً ثالثًا؛ هو ما يعرف باسم (عالم الخطاب Universum der Rede) (universe of =discourse) وهو مفهوم يضم – إلى جانب ما سبق – أشياء متمايزة، يقدمها كوزيريو في الشكل التالي (الشكل ١٥):

محيط الكلام

١- الموقف:

غير مباشر

مباشر

(1) جان كوهين: بناء لغة الشعر، ترجمة د/ أحمد درويش، مكتبة الزهراء، بدون تاريخ، ص١٨٤-١٨٥

٢- المنطقة:

المكان

المجال

البيئة

٣- السياق:

(أ) سياق لغة مفردة

(ب) سياق الخطاب

	غير مباشر	مباشر
إيجابي		
سلبي		

(ج) السياق غير اللغوي:

١- السياق الفيزيقي

٢- السياق الإمبيريقي

٣- السياق الطبيعي

٤- السياق العملي

٥- السياق التاريخي

٦- السياق الحضاري

	عام	خاص
حاضر		
ماض		

٤- عالم الخطاب:

ويعني أوجينيو كوزيريو بالموقف شيئًا خاصًا جدًا؛ إنه يتعلق بالظروف والملابسات والعلاقات في الزمان والمكان، تلك التي تنشأ من خلال الكلام ذاته؛ أي من خلال حقيقة مؤدّاها أن شخصًا ما يتحدث مع شخص آخر في حيز بعينه من المكان وفي لحظة بعينها من الزمان عن

obeikandl.com

شئ ما. الموقف إذن هو المحيط الذي يضمني وإياك هنا وهناك، الآن وذات مرة.

ويغني حديثنا السابق تناول عن المنطقة وعناصرها مرة أخرى. أما السياق، فيعني به الحقيقة الكلية المحيطة بالعلامة. ويمكن أن تكون هذه الحقيقة مستمدة من العلامة، أو من شئ آخر ليس بعلامة. أما عالم الخطاب فيعني به نظام عالم الدلالات الذي ينتمي إليه النص، والذي يحصل النص من خلاله على شرعيته وفعاليته ومعناه الخاص.

ونصل الآن إلى التمييز بين مكونات كل مقولة من المقولات السابقة. يميز داخل الموقف بين موقف غير مباشر وموقف مباشر. يبنى الموقف غير المباشر من الظروف والأحوال الزمانية والمكانية الفعلية، التي تنشأ هي ذاتها من الحدث اللغوي. إن الموقف غير المباشر يوجد، عندما أقول أنا (باعتباري متكلمًا) هنا والآن شيئًا ما في مكان الكلام وزمانه. أما الموقف المباشر، فوجوده رهين تحول نقطة الكلام إلى الخارج: فأنا لست أنا، وإنما أنا راو لـ: أنا. وهنا ليست هنا، وإنما هنا هي هنا الأشياء والوقائع التي يخبر عنها؛ أى الوقائع التي لها آنيتها التي تخصها، والتي لا تتداخل في آنية الحدث اللغوي المجرد.

أما السياق، فإنه يضم ثلاثة أنواع مختلفة، هي:

١- سياق لغة مفردة: وهو عند أوجينيو كوزيريو اللغة ذاتها التي نتكلم بها؛ فجميع العلامات المستخدمة في حدث لغوي والتي تنتمي إلى لغة بعينها تدخل في علاقة غياب in absentia مع عناصر علامية أخرى من اللغة نفسها.

٢- سياق الخطاب: وهو النص ذاته باعتباره المحيط Umfeld الذي يتسع لكل جزء من أجزائه.

٣- السياق غير الخطابي: وهو السياق الذي يتشكل من جميع الظروف والملابسات غير اللغوية التي يعيها المتكلم وعيًا مباشرًا أو التي يعرفها.

هذان النوعان الأخيران من السياق، لهما أهمية خاصة لفهم نشأة المعنى في النص. وإذا صرفنا الكلام إلى سياق الخطاب لاحظنا أنه لا تصنعه القطعة النصية فحسب، وإنما يدخل في صناعته أيضًا كل ما يتبع هذه القطعة وينتج عنها من ردود الأفعال: فكثيرًا ما يقال بأن ما قيل بالفعل هو الذي يمثل لنا سياق العلامات في النص. والحقيقة أن ما يمكن قوله بعد انتهاء المقول بالفعل ينتمي إلى سياق العلامات في النص كذلك؛ فقد يتعدل فهمنا للعلامات تعديلاً جذريًا في موضوع ما في النص، ولا نصل إلى هذا الفهم الصحيح أو المعدل إلا مع قراءتنا النص حتى نهايته.

أما سياق الخطاب الإيجابي، فيعني أن المعتاد هو وجود سياق إيجابي فقط. ولكن يبدو – كما يقول كوزيريو – أن ما لم يقل وخلا مكانه ينبغي أن يؤخذ كذلك في الحسبان. وهناك وظائف نصية كثيرة ترجع إلى أشياء لم يصرح بها النص أو لم تقل صراحة ولكن أشير إليها على نحو أو آخر. إن الأحداث اللغوية كالرمز، والتلميح، ونحوهما توظف غالبًا على أساس المواضع الفارغة، أو الفراغات المتروكة في النص، التي يعتبرها مفسرو النصوص معروفة قبل المقول بالفعل، باعتبارها أشياء يسكت عنها المرء. ويمكن أن يكون السكوت عن هذه الأشياء سكوتًا رمزيًا، بمعنى أن الشئ الذي لم يقل، يمكنه أن يكون له معنى خاص.

ويعرف السياق الخارج عن النص، بأنه السياق الذي يتعلق بجميع الظروف التي ليست داخلة في عدد العلامات في مقابل المستوى الأول من التحليل؛ لأن الأشياء يمكن من آن لآخر أن توظف توظيفاً رمزيًا وأن تصبح علامات من الدرجة الثانية.

ويشتمل السياق الخارج عن إطار اللغة (= السياق غير اللغوي) على السياق غير اللغوي الفيزيقي، وهو الذي يبنى من الأشياء التي تصاحبها العلامات مصاحبة غير مباشرة. ويشتمل كذلك على السياق غير اللغوي

الإمبيريقي، الذي يعني الأشياء والموضوعات التي تكون معلومة لدى المشتركين في العملية التبليغية زمن الكلام ومكانه. وقد يتعلق السياق غير اللغوي بالأشياء الظاهرة على نحو غير مباشر، مثال ذلك: عندما أريد أن أكتب شيئًا على السبورة؛ فلست – أول الأمر – محتاجًا إلى أن أحدد السبورة التي يدور حولها الكلام. ويضم كذلك السياق غير اللغوي الطبيعي، وهو يعني العالم الكلي لسياق الكلام المعروف لدينا؛ أي جميع السياقات الإمبيريقة الممكنة، إنه يتعلق بالطبيعة المحيطة بنا، وبما نعرفه عنها بفطرتنا، وبما يفترض أننا نعرفه إلى درجة ما عند الكلام. وهناك أيضًا السياق غير اللغوي العملي، وهو يعني ظرف التكلم؛ أي الغلاف الذاتي أو الموضوعي الذي يكتنف حدث الخطاب redeakt. ومثال هذا النوع من السياق حالة المشتركين في الحديث والظروف المكانية والزمانية الدقيقة للكلام التي تسمح لنا بالتعبير عما نريد تعبيرًا تقديريًا أو إضماريًا elliptisch؛ كأن نقول لشخص أمامنا: "إنه بارد برودة فظيعة"؛ فقد نعني هنا مشروبًا، وقد نعني حالة الجو وقت التكلم. والأمر هنا متروك للسياق غير اللغوي العملي.

أما السياق التاريخي، فهو مجموع الظروف والملابسات التاريخية المعروفة لدى المتكلمين. والوصف بالتاريخي هنا مقابل للوصف بالطبيعي ويمكن أن يكون مدى السياق التاريخي مدى خاصًا أو عامًا، بمعنى أنه يمكن أن يتحدد خلال جماعة صغيرة جدًا كالأسرة، أو القرية. وقد يتسع مداه إلى الأمة أو المجتمع الثقافي أو الإنسانية بأسرها. وفي كلتا الحالتين، يسهم السياق التاريخي في تحديد معنى العلامات المستخدمة في الحدث الخطابي. ومثال ذلك أن أمًّا قد تسأل في بيتها: أين أنت الآن ياعلي؟!، ولكنها إذا سألت هذا السؤال في قاعة المحاضرات بالجامعة، فسوف تقابل بقهقهات عالية من الجميع. وقد يكون السياق التاريخي عامًا، وهو – إذ ذاك – يعني المعارف الشائعة؛ كأن تقول مثلاً إننا نعيش في جمهورية ديمقراطية لا في نظام ملكي. ويمكن أن يكون السياق

التاريخي حاضرًا أو ماضيًا؛ فعبارة مثل (يوجد بابا واحد) هي تعبير في سياق تاريخي عام حاضر، لا ماض؛ لأنه على مر الزمان كان هناك باباوات كثر. ومن ناحية أخرى؛ لأن الباب لم يكن في جميع الأزمنة بابًا واحدًا فقط في مكان معين. وفي السنوات الواقعة بين عامي ١٩١٨ و١٩٣٩ كان الناس يتحدثون عن حرب عالمية، ولكن بعد عام ١٩٤٥ بدأوا يتحدثون آليًا عن حرب عالمية أولى وحرب عالمية ثانية.

والسياق الأخير من السياقات غير اللغوية هوالسياق الحضاري، ويعني به كل ما يتعلق بالموروث الحضاري لجماعة بعينها. ويدخل في هذا الموروث الميثولوجيا وجميع الحقائق التي تعرفها الجماعة عن أعمال علمائها وكتابها. ولا يشترط بالضرورة أن يعرف جميع العلماء والكتاب الذين أسهموا في تقديم هذا المعطى الحضاري فردًا فردًا.

ونأتي أخيرًا إلى المحيط الرابع، وهو عالم الخطاب الذي يعني النظام العام للمدلولات الذي ينتمي إليه النص والذي يحصل من خلاله على صلاحيته وشرعية معناه. إن كل صورة من صور تفسير العالم، وكل نوع متماسك تماسكًا خاصًا يعبر عن العالم، يمكنهما تصوير هذا النظام. إن عالم الخطاب يمكن أن يتعلق كذلك بالميثولوجيا، لا باعتبارها من السياق غير اللغوي الحضاري، ولكن باعتبارها نوعًا خاصًا من الكلام يعبر عن اعتبار ما أو زاوية ما من العالم. إن الميثولوجيا والأدب والعلوم والرياضيات؛ أي عالم حياتنا العملية، تمثل جميعها عالم الخطاب، ما دامت موضوعات لحديثنا[1].

ونود الآن أن نصل - بعد هذا العرض للمحيط اللغوي- إلى تحديد الفروق السياقية والموقفية بين الشفرتين: المكتوبة والمنطوقة في النقاط الجوهرية المهمة التالية:

أولاً: أن اللغة المكتوبة لا تقدم المحيطات السابقة جميعها؛ فالسياق غير اللغوي الفيزيقي لا يوجد إلا في اللغة المنطوقة. وكذلك الحال مع

(1) Coserin, Eugenio, Textlingusistik, Eine Einfuehrung Gunter Narr Verlag, 2., durchges. Auflage. Tuebingen (1981) SS. 94-100

السياق الإمبيريقي. أما السياق التاريخي والسياق الطبيعي، فإنهما غير مقتصرين على اللغة المكتوبة.

ثانيًا: من الفروق المهمة بين الشفرتين كذلك أن الشفرة المكتوبة – على العكس من الشفرة المنطوقة – لا تستخدم السياقات غير اللغوية الممكنة جميعها، وإنما تتبنى جانبًا من تلك السياقات من خلال السياق اللغوي (أو سياق الخطاب Kontext - Rede). إن السياقات غير اللغوية تبدو بذاتها – أول الأمر – على نحو جزئي في النص. وربما استخدمت – بعد ذلك – لتساعد في الوصول إلى تحديدات أخرى.

ثالثًا: إذا كانت اللغة المكتوبة لغة سياقية (بما أن السياق مرتبط في جوهره بمادة الخطاب)، فإن اللغة المنطوقة لغة موقفية (بما أن الموقف يتسع لجميع مناحي الكلام وملابساته وظروفه وحالة المتكلمين وتعبيراتهم البدنية واللفظية).

رابعًا: أن أثر السياقات غير اللغوية في اللغة المنطوقة أقوى وأشد وأكثر ظهورًا ومباشرة منه في اللغة المكتوبة. ولعامل النطق والأداء في اللغة المنطوقة أثره الواضح المباشر في خصوبة الجوانب الفونولوجية في سياق الخطاب المنطوق. ومن الطريف أن نشير هنا إلى ما ذكره رومان ياكوبسبون R. Jacobson في مقالته الشهيرة (علم اللغة والشعرية) عن هذا الممثل الذي استطاع أن يؤدي العبارة الروسية القصيرة segodn - ja večerom (مساء اليوم) في نحو أربعين طريقة من الأداء، حتى يمكن أن نجد أمامنا لفهم ما قال نحوًا من أربعين طريقة مختلفة[1].

خامساً: إذا كانت طريقة إنتاج اللغة المكتوبة تتيح للكاتب فرصة التعديل فيما كتب وإعادة كتابته إذا أراد، فإن طريقة إنتاج اللغة المنطوقة تتيح للمتكلم فرصة لملاحظة محاوره. وهي ليست ملاحظة بصرية بسيطة؛ وذلك أنها تساعده على أن يكيف كلامه ليجعله في

(1) Jacobson, Roman, Linguistik und Poetik, in J. Ihwe (Hrsg) Literaturwissenshaft und Linguistik, Frankfurt / Main (1972) Bd. I. SS. 99-135, S. 105

متناول محاوره وليكون أكثر قبولاً عنده. ونحن نعلم أن الكاتب ليس له إلا أن يتخيّل رد فعل القارئ.

ومن المهم – كما يقول براون / يول – ملاحظة سلوك الأفراد عند اختيارهم الطريقة التي يتعاملون بها في معاملاتهم المالية، سواء أكانت بالمواجهة الشخصية أم بالكتابة. ففي بعض الحالات يفضل أن يكون التعامل تفاعلاً مباشرًا؛ أي وجهًا لوجه، ولكن يفضل في حالات أخرى، ولأسباب مختلفة، أن يكون التعامل في مثل هذه الشئون المالية عن طريق المكاتبة[1].

(1) Brown / Yule. op. cit., p. 5

obeikandl.com